اهم الاخبار والآراء

(اعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان في الدولة العلية)

في صبيحة يوم الجمعة المبارك ٢٥ جمادى الآخرة صدرت الإرادة السلطانية بإعادة « مجلس المبعوثان » والأوامر من مقام الصدارة الى الولايات بالانتخاب. فشمل الفرح والسرور جميع العثمانيين في دار السلطنة وجميع الولايات وفي جميع أقطار الأرض وعدوا هذا اليوم العظيم عيداً عاماً للأمة العثمانية على اختلاف مللها ونحلها

أما سبب نيل هذه الامنية التي تشوف اليها العثمانيون من نحو ثلث قرن بعد ما سلبت منهم فهو التدبير العظيم الذي قامت به جمعيات الاحرار العثمانيين في أوربا ومصر بعد اتحادها ودخول كبار ضباط الجيش المستنيرين فيها وربما نين ذلك في وقت آخر

وما كاد نبأ البرق يوافي مصر بهذه البشرى حتى انبث فيها بين العثمانيين من الترك والسوريين والأرمن وغيرهم فأنشأ يهنيء بعضهم بعضاً والبشر يتدفق من وجوههم . ثم طاف جمهور منهم في الشوارع الكبيرة بالقرب من الازبكية وهم يهتفون بالأناشيد العثمانية

ثم اجتمع مئات منهم في ردحة قهوة « اسبلندديار » وطفق يترنم بعضهم بالاناشيد والآخرون يصفقون لهم . وقام غير واحد منهم فخطبوا بالتركية وقام صاحب هذه المجلة فخطب بالعربية خطبة وجيزة صفق لها الجمهور من حملة الطرابيش والبرانيط بهجة واستحساناً

كان موضوع الخطاب ان هذا اليوم عيد لجميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واجناسهم وان الفضل في نيلنا الدستور عائد لمساعي أحرارنا وجمعياتنا السياسية وضباطنا ذوي البسالة والحمية ، وانه يجدر بنا معشر العثمانيين ان نفاخر جميع الأمم بنيل الدستور من غير ثورات داخلية تراق فيها دماء الالوف ويهلك فيها الحرث والنسل : وأنه ينبغي لنا ان ننسى الماضي وان نعمل للمستقبل فنظهر للامم كلها اننا أهل لهذا النوع الراقي من الحكومة فيجب ان يتحد التركي والعربي والرومي والارمني وسائر الاجناس العثمانية ويقوموا بالاعمال التي ترفع شأن البلاد على قواعد المحبة والمساواة ...

ومما قلته ايضاً اننا نشكر لحضرة السلطانية المبادرة الى اجابة طلب الضباط الناطقين بلسان أحرار الامة . فبطل التصفيق او قل عند ذكر السلطان وأشار كثير من الترك والأرمن اشارات الانكار

وفي يوم السبت التالي اجتمع في دار رفيق بك العظم جمهور عظيم من فضلاء العثمانيين المختلفين في الجنس المتحدين في العثمانية لأجل المذاكرة في تنظيم مظاهرة باعلان السرور وإرسال برقيات الشكر الى جمعيات الاحرار في أوربا والى الاستانة وقد كانت جمعية الشورى العثمانية قررت في يوم الاربعاء الماضي جمع اكثر هؤلاء الاحرار للمذاكرة في شؤون الثورة ومطالبة الصدر الاعظم سعيد باشا بأن يختم تاريخه بمساعدة الامة على اعادة الدستور وجمع «مجلس المبعوثان» فلما بشرنا البرق في مساء يوم الجمعة بصدور الارادة السلطانية بذلك تحول مقصد الاجتماع الى ماذكرنا

اقترح الجمهور ان ترسل تهنئة برقية الى الامير صباح الدين داماد (ابن اخت السلطان) رئيس جمعيات الاحرار بباريس يشكر له فيها سعيه وسعي الاحرار ويكلفه فيها ان يبلغ نيازي بك رئيس الضباط الذين اظهروا الثورة العسكرية في مكدونية وإخوانه كنوري بك وانور بك شكرهم وسرورهم . ورسالة اخرى الى الصدر الأعظم

فاقترح صاحب هذه المجلة إرسال رسالة خاصة الى السلطان . قلت : ان ضباطنا واحرارنا طلبوا والسلطان أعطى فنشكر له أنه قدر الحال حق قدرها وبادر الى الاجابة ولم يضطر الجند الى سفك الدماء . فوافقني على هذا الاقتراح من حضر من السوريين اكثرهم بالقول وبعضهم بالسكوت . وعارضني اكثر الترك والأرمن وقال واحد من اشهر احرار الترك : انه لم يجب الطلب فضلا واحسانا ولكنه اجابه بعد ان أشرعت في وجهه مئة وخمسون ألف حربة (سنكه) وقال بعض المعتدلين منهم لا بأس بأن يذكر في تلغراف الصدر الاعظم تبليغ السلطان سرور العثمانيين وبعد طول البحث انتخب الجمهور لجنة منهم لتقرير ما يجب وجعلوا رئيسها اسماعيل حقي بك القائمقام العسكري (لان الدستور رجع بقوة الجند) فقررت ان تحتفل في احد دور التمثيل احتفالا يخطب فيه العثمانيون بالتركية والعربية والفرنسية

والارمنية والرومية . وان يعرض على الجمهور المحتفل صورة رسالتين برقيتين احداهما للامير صباح الدين افندي والثانية للصدر الاعظم وترسلان بعد اقراره عليهما . وقد بذل الحاضرون ما يلزم من النقود لاجل ذلك بغير اكتتاب بل بمجرد الاريحية .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع جمهور من المصريين في حديقة الازبكية لاظهار السرور بنيل العثمانيين للدستور ومجلس النواب (المبعوثان) حضرنا هذا الاجتماع في اثنائه واقترح علينا حسين بك تيمور الذي دعا الى الاحتفال وبعض العثمانيين ان نخطب بالحاضرين خطبة تناسب المقام وكان جل اقوالهم إطراء للسلطان بأنه تفضل وتكرم بالدستور اي بغير علة ولا سبب ، ولا ثورة ولا طلب ، وان جيوشه منتشرة من منابع النيل الى ميلان ! ! ! ثم رأينا الجرائد كتبت عن هذا الاحتفال فوصفته الجريدة والمقطم كما حصل وذكر اللواء عنه نبذة صغيرة معظمها كذب . وهذا ما جاء في الجريدة

مظاهرة في حديقة الازبكية

اعلن حضرة حسين بك تيمور — انه سيخطب في حديقة الأزبكية نحو الساعة السادسة بعد ظهر أمس لاظهار السرور بمنحة الدستور لاخواننا العثمانيين . فبناء على هذا الاعلان توافد الناس من خاصة وعامة الى حديقة الازبكية ولما وافت الساعة السادسة التفوا حول كوشك الموسيقى فافتتح الخطابة حضرة ربيع افندي المدرس بالمدرسة التحضيرية فبسط كلمة عن فوائد الدستور ثم قال اننا نؤمل البلوغ الى غايتنا من نيل المجلس النيابي وان طال علينا الامد . ثم اختتم خطبته بالدعاء لجلالة السلطان والامة العثمانية والجناب العالي . وتلاه شاب يدعى الشيخ حسين الغزي من طلبة العلم في الازهر الشريف فحذا حذو الخطيب الاول في الموضوع ثم تلاه حضرة الشيخ صادق عمران فتلا قصيدة يمدح بها جلالة السلطان والامة العثمانية ثم طلب جماعة من رجال الصحافة والادب إلى حضرة الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أن يتكلم في الموضوع كلمات تروي الغليل فأجاب دعوتهم وارتقى مكان الخطابة فقال ما خلاصته

« هذا اليوم هو عيد للعثمانيين عامة وعيد المسلمين خاصة فانه عيد بحكومة

الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس . وحكومة الشورى التي قررها الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

مسائل الأمن والخوف من الامور العامة المتعلقة بسياسة الامة وإدارتها ولم يفوّض القرآن الامر فيه الى الرسول (ص) وحده وهو الامام المعصوم وصاحب الشريعة ومبلغها بل جعل الامر فيها اليه والى أولي الامر من الامة يديرونها بالشورى بينهم

من هم أولوا الامر ؟ زعم بعض المحرفين أو المخرفين ان أولي الامر هم الملوك والسلاطين وهو زعم ظاهر البطلان فان الرسول لم يكن معه حين نزلت الآية ملوك وسلاطين وانما كان يستشير أولي الرأي والمكانة من الامة فهم أولو الامر بغير نزاع

أفرأيتم هذه الهداية إلى حكومة الشورى وسلطة الامة . هل يوجد عناية وتأكيد في شريعة ودين أبلغ منها ؟ اذا كان رب العالمين لم يرض ان يكون خاتم رسله مستقلاً بادارة الامور العامة دون أهل الرأي من أمته فكيف يرضى أو يشرع لغيره ممن هو دونه بذلك ؟

مع هذا كله لم تلبث حكومة الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ان صارت شخصية استبدادية ولا نخوض في الكلام عن الماضي فانما غرضنا الكلام عن الحاضر

تقلب الزمان ودالت الدول ودخل العالم الانساني في طور جديد فسبق غير المسلمين الى حكومة الشورى وكانت حكومة دولتنا العلية وهي شخصية على خطر بين الحكومات النيابية الشورية المجاورة لها ففكر بعض أصحاب العقول الكبيرة فيها من نحو نصف قرن في جعل الحكم بيد الامة وانفذوا ذلك من نحو ثلث قرن فوضعوا القانون الاساسي وأنشأوا « مجلس المبعوثان » الذي تعبرون عنه بمجلس النواب ولكن لم تلبث السلطة المطلقة ان استردت هذه المنحة أو هذا الحق منهم

لو كانت الامة العثمانية في ذلك الوقت مستعدة للدستور استعدادها اليوم لما أمكن أخذه منها ولكنها لم تنله باستعداد الجمهور بل باستعداد أفراد من نابغي وزرائها أصحاب الادمغة الكبيرة والافكار البعيدة والغيرة الشديدة كمدحت باشا واخوانه

لم يكن العقلاء في الامة العثمانية يعدون على الاصابع فيموت الدستور بموتهم بل كان في الامة كثير من أهل التربية العالية والمعارف السامية ولكنهم لم يكونوا منبثين في الامة كلها ولا مشتغلين باشراب روحها معنى الحكم الذاتي

فلما رأوا أنفسهم قد سلبوا ما فيه سعادة الامة وعزة الدولة وانه لا سبيل الى استرجاعه من الاعلى كما جاء أولاً بتدبير مدحت باشا وحسين عوني باشا وإخوانهما رأوا ان يطلبوه من جانب الامة بتوجيه نفوس المتعلمين اليه فانشأوا الجمعيات السرية التي ظلت تسعى وتتأدب وتصارع الصعوبات حتى اتيح لها الظفر الآن ونالت ما تتمناه »

ولما بلغ هذا المقام من البيان التاريخي المفيد كبر على أناس لم يفقهوا قوله فحدث شيء من الشغب وانقطع الخطيب عن الخطابة اه كلام الجريدة

وأزيد على ما ذكرته الجريدة ما جاء في بعض الصحف وهو ان بعض المصريين صاح ليحي السلطان . لتسقط تركيا الفتاة . او حزب تركيا الفتاة . فصاح بصياحه جمهور من الحاضرين فاستاء من كان هناك من فضلاء الترك وغيرهم من العثمانيين وقال قائل منهم : ياشيخ رشيد لا تتكلم على هؤلاء الذين لا يفهمون .فما زادهم ذلك الاصياحا بسقوط تركيا الفتاة اي الامة العثمانية في حياتها الدستورية الجديدة!!! وظنوا لجهلهم ان من لوازم حب السلطان ان يعيش على شيخوخته وضعفه عمر اطويلا بغير امة او بامة ميتة وجودها كالعدم فهكذا يكون الاحتفال بالدستور!!

اما العثمانيون الاخيار فقد جعلوا موعد احتفالهم مساء يوم الثلاثاء غرة رجب وأن لا يذكر الخطباء فيه اسم السلطان بذم ولا مدح ولا تهنئة ولا شكر عملا برأي السواد الاعظم وخلافا لرأي اكثر السوريين وهم العدد الاقل في جمهور المؤتمرين بالاحتفال وسنذكر شيئاً عن الاحتفال في الجزء الآتي

أرسل الينا كثير من المحبين رسائل التهاني بنيل أمتنا الدستور لعلمهم بما أصابنا من الاستبداد منها ما طار به البرق ومنها ما عدا به البريد منها ما هو بعنواننا الخاص ومنها ما هو بوصف جمعية الشورى العثمانية . فنشكر لجميع المهنئين عاطفتهم الشريفة ونخص بالذكر لجنة الشورى العثمانية في البرازيل وربما ننشر شيئاً مما فيه العبرة والفائدة من تلك الرسائل

الفصل العاشر (*)

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

واذا العناية صاحبت مرءا فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المتممات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، الملذات بنسائهن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أثقالها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كل مافيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع مايدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى غيرها، فاطلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارق الأسرار ومغاربها، وارتقينا الى ينابيع الأكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الإنس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا تكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

(*) من سيرة السيدة خديجة

بعضها على بعض، وتدابرنا في مناهج طلابها، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في أنصبائنا، والفرق في مراميناء والبعد في مدارجنا، والتين في معارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مدارهم سابحة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، وبادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دائبة بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القطار ونفسها، ومع العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندوجة في الاواخر مع لفوائهم الاوائل

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنتها من معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية السارية سرها في الاكوان والوجودات، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات، من الاشكال والتنوعات، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون

اذا وقفت نفسك عند هذا الطغيان من المعرفة فاطلبها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا ان نحيط باسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا ، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السر الاعظم ، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على مايختص بها من يشاء فله الامر كله فيما يبدي ويصور ، وله الحكمة فيما يوزع ويميز ، منه كل شيء واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية ، والعناية السرمدية ، فدع نفسك واقفة ماشاءت في حمة النفي ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها . وانما نحكي هنا للذين لم يرهم يؤمنون

* * *

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب [1] من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

---

(١) اسم عبد المطلب شيبة ولقبه بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكره

أكنت تفكر اذ قصادى أملاك حفظ مقامك بين قومك المتقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعتده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية

أجاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في «غزة» فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبت والدته أن تعطيه اياه حتى أقدمها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فدخلت قريش انه عبد اتباعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له

هل كنتَ ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع ، وتمجيداً لا يزول ؟

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي أتاهم الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك بظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزلي ، فليدم ذكرك جلا للمحافل واسمك سامياً مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني الامم ، تواريخها ولا سني انفسهم وانما كانوا يحفظون الأعمار ووقوع آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الامميين الى عهدنا

ولعام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم قدور صفوة حكايتها على حرز فيل القائد النجاشي وابائه المسير تلقاء مكة فلذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين وقلة الاخبار

وقد أعطي لرضعة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع المفارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك المير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

* * *

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل، وسوء مستقلب الكسل، وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الأنام عهداً ان لا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم همهم، وثغور اجتهادهم، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، وقذفت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أونقت رياضهم، ولم يعن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظمأ - ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهما لم يكونا يملكان الاغنيات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجدب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصابا ها فملأتهما فرحا، وأشبعتهما ابتهاجا، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكراً على هذه النعماء، وهذا ما كانا يتحدثان به :

— حقا يا حليمة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أي والله يا حارث وانظر ما أجله، انظر الى هذه الاشفار الهدب، انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قراء [١] معنا شارف [٢] لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [٣] بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك لانا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي «والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه» قال لا عليك ان تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره. قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثديي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل [٤] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت. يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت والله اني لأرجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

(١) القمراء بالضم لون الى الحضرة أو بياض فيه كدرة. حمار أقمر وأتان قمراء

«٢» الشارف الناقة المسنة «٣» أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها أي هزالها وضعفها «٤» حافل كثيرة اللبن

فعلمت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرمه حتى ان صواحبي ليقلن لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا [1] أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله انها لهي. فيقلن «والله ان لها لشأناً

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان »

فيالك من سعيدة يا حليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك وويلكن أيتها المراضع الغبيات المعرضات عن اليتيم التماساً لارضاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

* * *

بعد ان ربي «محمد» (ص) في بني سعد عند السيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده وقد رسم فيه نور الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودّعه بنظرات الحنان وأودعه الى الجناب الالهي الذي من لدنه وارمات الحنان والرحمة على اليتيم والى اليتامى طول

---

[1] اربعي أي ارفقي واقصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتهذيبه وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيلاً شهماً صادق المروءة ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف. عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والتدوعنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتتطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الالهية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنياً عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك العالم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور عليه الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله. ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشئ الارتقاء العقلي، ومناهج الإشراق الفكري، لا كتب يدرسونها، ولا قوانين للمعارف يرتبونها، ولا شيء من الغرائز طبية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وصحافة أو توها

في نفس أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر، وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل، فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، بطبع من المربين، ونقش من المتقنين، وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، ووليه النجيب،

نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، أذكاهم عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أندادهم في المعرفة يداً، وأثبتهم في الأزم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعدلهم للبعيد، أقربهم الى المعروف سمتاً، وأبعدهم في الامور نظراً، أسدهم رأياً، وأشدهم اقداما، ألينهم للصاحب جانباً، وأكرمهم للخير صاحباً، وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده جمالا وجلالا وكمالا والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت. كانوا على وجه الارض جمالاً لما فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعامتهم طراً، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا «فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه «أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومصانعها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة، ونفائس ما تعمله تلك الايدي الكفة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هذا المطعام الزائل، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الفريدة في هذا الهيكل الجسماني، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في «بصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرنه على أساليب التجارة، وأطلعه على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والمأكون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية مالبس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية مالبس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تنبأ الصفوف، وتتقابل الابطال، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تتقطع قلوبهم جبناً، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف القتال، وليس يخاف ان الاخذ يد الناشيء الى معارك أبطال المبايعات، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات ، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاحه الله للاخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة» ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة» فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة » معه